قِرَاءة فِي فِكر هيرمان باڤينك عَنِ الحَربِ والمَسيحية

اسم الكاتب : مينا عبدالله أنس

"مَا هُوَ موقف الأخلاق المسيحية تِجاه الحَرب؟ هَل الحَرب لها مكان فِي المَنظور المسيحيّ للعالم؟ هَل ينبغي إدانة الحَرب فِي كُلّ وقت وفِي كُلّ مكان ومعارضتها كجريمة؟ هَل الحَرب لها أيّ معنى أَمّ أنها ليستْ سوى الظُّلم والقوة الغاشمَة وعمل الشَّيطان؟ **(Herman Bavinck, "The Problem of War," 46–53. Online)**." يتسأل هيرمان باڤينك كغيره من اللاهوتيين هذه الأسئلة عَن الحَرب ويُجاوب مُعبرًا عن لاهوتهُ بالاستناد إلى الفكر الكتابيّ والفكر المسيحيّ عبر القرون. فهذه الأسئلة لَن تُحسمْ بنَص واحد أو نقاش واحد كما يدعي البعض؛ ولكن سيَظل السؤال مفتوح لمزيد مِن البحث، ولكُل جيل منهجية خاصة بهِ ولكُل جيل ظروفهُ التي فيها ينشِأ ويتَفكر. فَنعلمْ جَميعًا أنَّ الحَرب والانقسام وكل خطية هي نتيجة لسقوط الإنسان، ولا يمكن أنّ نَنكر أنَّ هذه المُعضلة شغلّت الكثير مِن اللاهوتيين وتنوعت إجاباتهُمْ وما زالت مفتوحة للتنوع لصعوبتها وارتباطها بالواقع بصورة مباشرة. فيسرد هذا المقال نظرة المُصلح الهولندي **هيرمان باڤينك** للحَرب من خلال ثلاثة جوانب. **أولًا: نظرة هيرمان باڤينك للعهد القديم عن الحَرب. ثانيًا: نظرة هيرمان باڤينك للعهد الجديد عن الحَرب. ثالثًا: استنتاجات هيرمان باڤينك اللاهوتية عن الحَرب.**

أولًا: نظرة هيرمان باڤينك للعهد القديم عن الحرب.

لَا أحد يستطيع أنّ ينكر أنَّ الحَرب في العهد القديم يُشار إليها علَّى أنها حق إلهي من وقت الخروج حتى سقوط أورشليم عام٧٠م، فكان يُنظر إلَى هذا الصراع دينيًا وأخلاقيًا على أنهُ حرب شنها إله إسرائيل ضِدَّ الآلهة الوثنية. فيذكر الكتاب المقدس: الرب إله إسرائيل هُو رب الجنود (١صم١٧: ٤٥)، رجل الحرب (خر ١٥: ٣)، جبار في القتال (مز ٢٤: ٨)، يخوض حربًا مع شعبهِ (قضاة ٤: ١٤). هذه ليست وجهة نظر الناس فقط عن الحَرب! بل وجهة نظر الأنبياء أيضًا: فشارك إبراهيم في المعركة ضِدَّ طُغاة سدوم وعمورة (تك ١٤)، قاد موسى ويشوع والقضاة والملوك إسرائيل في المعارك ضِدَّ أعدائهم، حشدَ صموئيل النبي بني إسرائيل ضِدَّ الفلسطينيين (١صم ٧). بُناءً على هذه النصوص يوضح باڤينك: إنَّ إسرائيل القديمة عاشت في ظروف مختلفة تمامًا عن ظروف المجتمع المسيحي، ومن ثم لَا يمكن أنّ يكون تاريخها مبدأ توجيهي أو مثال لنا في حياتنا **(Herman Bavinck, "*The Problem of War,*" 46–53.)**. ويمكن تلخيص وجهة نظر باڤينك للعهد القديم في جانبين: **أولًا،** مَا حدث من حروب في العهد القديم ليسَ دافع لتبرير حرب ما اليوم أو استخدام النصوص خارج قرينتها للدفاع عن قضية ما كما يفعل البعض _ فهذه النصوص تخضع لتفسيرات سياقية وروحية ينبغي مراعاتها. **ثانيًا،** لا يمكن إنكار أنّ الرب استخدم الحروب في العهد القديم لهدف أعلى وأسمى، فكثيرًا ما يُخرج الله من مَا يفعله الإنسان من شر غاية نافعه للبشرية. فقال متحدثًا عن طبيعة الله: "إنَّ الله بالحقيقة صالح وقدير بحيث يجعل الخير يخرج من الشر، ويستطيع أن يجبر الشر، رغم طبيعته، على المساهمة في تمجيد اسمه وتوطيد ملكوته (هيرمان باڤينك، **بين العقل والإيمان،** ج 2، ص 98)."

ثانيًا: نظرة هيرمان باڤينك للعهد الجديد عن الحرب.

إنَّ المَسيح في العهد الجديد هُو الذي جَلبَ السلام علَّى الأرض، وهُو الذي يَقودنا للسلام، ويؤسس مملكته على السلام. فمّضمون الإنجيل: هو تعبير عن صناعة السلام ما بينَ الله والإنسان، وهذا السلام بالتأكيد لهُ نتائج أخلاقية في الواقع بين الشعوب والأمم المتنوعة. فالجميع واحد في المَسيح؛ فهو ليسَ فقط لأنقياء القلوب والفقراء! ولكن أيضًا صناع السلام والمسالمون يُدعَونَ أَبناءَ الله. ففي العظة على الجبل حثَّ تلاميذه علَّى أنّ يتعاملوا بلطف وأنّ لَا يُجاوبوا الشر بالشر. فالبعض يرى المعيار الأخلاقي للعهد الجديد مرتفع للغاية، لدرجة إنه من الناحية العملية يبدو غير قابل للتطبيق على أرض الواقع. فمقارنة كلمات السلام هذه بالواقع المروّع للحرب يقفان في تناقض حاد! لدرجة يبدو التوفيق بينهم يبدو مستحيلًا. فيأمرنا المَسيح ألَا نقاوم الشرير وأنّ نُحب عدونا، ولكن في الحرب يكون العكس تمامًا _ مطلوب القتل والحرق والدمار وكل ما يُساهم في سقوط العدو. ومن هنا ظهر التناقض في نظرة رجال الكنيسة مُنذ العصور القديمة للحَرب، وأدى ذلك إلى محاولات مختلفة للإجابة عن معضلة الحرب: فرفضَ البعض العالم باعتباره مِلكًا للشيطان وسعى إلى الانعزال عن العالم، آخرون رفضوا تعاليم المسيح باعتبارها غير عملية في الواقع وأنكروا فاعليتها (**Herman Bavinck, "The Problem of War," 46–53.**). وينقد هيرمان باڤينك هَذين التوجهين القائلينَ بالانعزال أو ترك التعاليم، بانه لا يمكن مواءمة مثل هذه المشاعر مع المسيحية سواء الانعزال أو ترك التعاليم المسيحية بحجة عدم فاعليتها في الواقع! فيقول: "فينعزل الراهب عن العالم ويدينه، أما يسوع فقد عزل نفسه وذهب إلى موضع خلاء ليقوي نفسه على الأعمال في وسط الناس (**Willem J. de Wit, "An Invitation to Read Herman Bavinck in the Middle East," 36.**)." بالنسبة لباڤينك من الضروري أنّ يكون لدى المسيحيين دعوة للمشاركة في الثقافة وهذه هي رسالتنا، كمؤمن لا يجوز للمرء أنّ ينسحب من المجتمع، فدعوتنا هي أن نذهب للعالم. وهذا ما قاله على الثورة الفرنسية ناقدًا الاتجاهين المتطرفين: ليبراليون ومناهضون للثورة. ومن جانب آخر، يؤكد باڤينك أنه لا ينبغي مساواة العظة على الجبل بالحياة المسيحية بالكامل، فمشكلة الحرب ليست بهذه البساطة بحيث يُمكن حلها من خلال نَص واحد؛ بل هي جزء من قضية أوسع تَمَس علاقة المسيحية بالحياة ككل. فهو لا يعني التقليل من شأن هذا النص، بل يشير بهذا إلى أهمية النظر إلى لاهوت الكتاب بصورة كلية عند تحليل قضية ما ذات أهمية مثل قضية الحرب سواء بالموافقة أو الرفض.

ويفسر باڤينك نظرة العهد الجديد للحَرب بإنَّ العهد الجديد لَا يرفض أبدًا المهنة العسكرية في حد ذاتها: فتلقى الجنود الَّذين أتوا إلى يوحنا المعمدان أمرًا بعدم أخذ نقود بالقوة، ولكن ليسَ أمرًا بترك الخدمة (لوقا 3: 14). أعربَ يسوع عن دهشتهُ من الإيمان العظيم لقائد المئة وشفى عَبده (متى 8: 10)، تَم تَعميد كَرنيليوس وعائلته بأكملها وتَم قبولهم في الكنيسة (أعمال الرسل ١٠). دون أيّ تخوف تحدث يسوع في أحد أمثاله عن ملك جلسَ قبل ذهابه إلى الحرب، يفكر فيما إذا كان بإمكانه الانتصار بعشرة آلاف رجل، مقابل خصمه الذي لديه عشرين ألفًا (لوقا 14: 31). وبالمثل يسعد بولس باستخدام الصور العسكرية لوصف حياة المسيحي (رومية 13: 6 ؛ 1كورنثوس 9: 7، أفسس ٦:١٠- 17، 2تي 2: 3). وتشير أقوال المسيح هذه بوضوح إلى أنَّ هناك ممتلكات روحية لها قيمة أكبر بكثير من الرخاء والسلام الشخصي، يأتي الله قبل الإنسان دائمًا. محبته هي الوصية العظمى والأولى لنا (متى 22: 37 _ 38). فينبغي أنّ نطيعه أكثر من طاعة الرجال (أعمال الرسل 5: 29). لذلك يجب البحث عن مملكته وبره فوق كل شيء (متى 6: 33). لأن ملكوت السموات كنز ولؤلؤة غالية الثمن (متى 13: 44 _ 46). وهكذا فإن الإنسان أكثر قيمة من العالم كله (متى 16: 26)، والنفس أكثر من الجسد (متى

6: 25). إذًا ترشدنا تعاليم المسيح والرسل إلى إنه ينبغي علينا دون تردد أنّ نتخلى عن الأصغر لكي نشارك في الأعظم ونحافظ عليه. الحياة والازدهار والسلام ليسُ أعلى الممتلكات، هناك حالات ينبغي فيها التخلي عن الأغلى ومعارضته. لقد ترك لنا الشهداء مثالاً على ذلك، حتى المسيح لَم يُرضي نفسه، فاحتمل عار الصليب (رومية 15: 3). فالمسيح يشجع على الغفران والتسامح، ولكن من جانب آخر لَم يختار الاتفاق والانحياز إلى مملكة الظلمة من أجل سلام مؤقت؛ فكان الحق والعدل أولوية عن السلام المزيف مع الظلم والشر (**Herman Bavinck, "*The Problem of War,*" 46–53.**). فالوقوف ضد الشر والظلم هو دعوة كتابية واضحة، فلا يمكن أن نتعايش مع ظالم أو نقبل تكبيل حرية أحدهم سواء شخص أو شعب على أساس خطأ أو بدعوة النظر فقط لجانب المسامحة والغفران في كلمات المسيح، فلَم يدعونا يومًا أنّ نحيا بلا حرية أو بلا كرامة أو نترك الظالم بلا أنّ نقف أمامه ونعلن الحق. وأعتقد أنّ باڤينك هنا يكرر ما قاله جون كالفن عن الحَرب ودور الحكام: "فالحُكام ينبغي أنّ يدافعوا عن رعيتهم، فلو التعليم المسيحي يدين كل حُروب بصورة مطلقة لكان ينبغي أن يقول المسيح للجنود الذين طلبوا مشورته حول خلاصهم. أن يتخلصوا من أسلحتهم ويتركوا الخدمة ولكن قال لهم لا تظلموا ولا تشوا (لو٣: ١٤) **(جون كالفن، أسس الدين المسيحي المجلد الثاني، ص ١٣٩٨.)**."

ثالثًا: استنتاجات هيرمان باڤينك اللاهوتية عن الحرب.

إنَّ الحُب المسيحي يختلف اختلافًا جوهريًا عن الحُب الحر، الذي يتم ترديده وتجميله كثيرًا هذه الأيام. فالحُب الحر ليسَ في الحقيقة سوى نقص في الانضباط وتحرير للعاطفة بلا حدود. فالمحبة المسيحية هي بالأحرى إتمام الناموس، وهي مفروضة بمشيئة الله؛ وواجب على الإنسان الذي يقيِّده بالضمير. هذا الحُب ليسَ تعسفيًا ولا اختيار شخصي؛ لا يكمن فينا تحديد مَن/ماذا يجب أنّ نحبه. فيُعلمنا الكتاب المقدس أنّ نحب الله كما يكشف عن ذاته هو وليسَ كما نتخيله نحنُ. ينبغي أنّ نحب الجار الذي يضعه الله بجوارنا وليسَ مَن نختاره ونتلذذ معه، ينبغي أنّ نحب كل ما هو حقيقي وصالح ونقي _ لذلك يوجد حُب حقيقي وحُب زائف. وبالمثل، هُناك سلام جيد يجب أنّ نجاهد ونسعى إلى الحفاظ عليه مع الجميع، ولكن هناك أيضًا سلام مزيف وخاطئ يجب كسره. فمن أجل سلام، بالأكاذيب والظلم عن طريق التنازل نعقد معاهدة أو سمحنا بهدوء على أساس ما هو خطأ! فإننا نكون ضعفاء وننكر الحقيقة والفضيلة ضدَّ هذا السلام الزائف. ادعى يسوع أنه جاء ليلقي النار على الأرض (لوقا 12: 49). هُناك قوى في هذا العالم لا يمكننا أبدًا العيش معها بشروط سلمية، هناك حقائق وحقوق وممتلكات روحية وكنوز غير مرئية يجب أنّ نكون مستعدين للتضحية بكل شيء من أجلها: السلام والهدوء والاحترام والسمعة، وحتى الحُب لعائلتنا وحياتنا. قد تكون الظروف في هذا العالم غير مفهومة، خطيرة، معقدة لدرجة أنّ الحُب نفسه قد يجبرنا على كسر السلام والانخراط في المعركة. كان من الأفضل أنّ يلتزم الأنبياء مثل إرميا الصمت ويقضونَ أيامهم في سلام وطمأنينة، لكنهم لَم يستطيعوا ذلك ولَم يُسمح لهُم بذلك؛ تكلموا لأنهم آمنوا وكافحوا ضدَّ أمتهم لأنهم أحبوها. بمحبته الكبيرة لله وللإنسان، دفع يسوع نفسه حتى الموت لمقاومة كل قوى الشر. بولس الذي بشر بنفس روح المغفرة (رومية ١٢: ١٧-٢١، (1تسالونيكي 5: 15)، (1 بطرس 3: 9) أيضًا يناشد حقوقه كمواطن روماني (أعمال 22: 25). الإهانات الشخصية يمكن ويجب أنّ تُغفر، ولكن عندما يتم الاعتداء على الحق أو العدالة وفقًا للمبادئ المسيحية التي تضع ملكوت الله وبره فوق كل شيء آخر، من واجب المرء الدفاع عنها والإدلاء بالشهادة. على سبيل المثال، الحياة هي ملكية يمكن ويجب الدفاع عنها، في حالة الحاجة الضرورية، لكل إنسان الحق والواجب في الدفاع عن حياته والأسلحة في يده _ قد يصعد

المُتسلل إلى أيّ منزل بالعنف والقتل والنهب! فإن السُلطات المدعوة للحفاظ على العدل لا تحمل سيف الحرب عبثًا؛ إذا لزم الأمر في حالة الطوارئ ينبغي عليهم استخدام السيف في الداخل والخارج (**Herman Bavinck, "The Problem of War," 46–53.**). فيسعى هيرمان باڤينك في هذا الجزء إلى محاولة التوفيق بين النص الكتابيّ والواقع، فالنص يأمر بالتسامح من جانب وجانب آخر يحثنا على قول الحق. والواقع يصرخ من العنف والشر ويقتضي منا الدفاع والرد على الشر سعيًا لمحاولة تجنب شره، وهذا ليسَ ضدَّ الكتاب بل هو مطلب هام لنا في العالم الساقط (وهذا ما يُتبع من جهة الحكومات التي تسعى لحماية مواطنيها). فمِن الجَدير بالذكر أنّ رجال الكنيسة المسيحية بمختلف توجهاتهم لَم يدينوا المحارب/الحَرب التي تختص بالاستدعاء للجيش والخدمة للوطن "**خدمة الوطن لا تعني الاعتداء على آخر مهما كان المُبرر؛ ولكن فقط من أجل الدفاع والحماية لما لنا كبشر سواء في الداخل أو الخارج**"، فدعوتها حَسب كلام المَسيح أنّ تقدم لله ما هو لله وأنّ تقدم لقيصر ما لقيصر(**Herman Bavinck, "*The Problem of War,*" 46–53.**). وفي وجهة نظري لا يمكن تعميم هذا الرأي القائل بأن رجال الكنيسة لَم يدينوا المحارب والحرب التي تختص بالوطن! لأننا نقرأ في كثير من المصادر معارضة الآباء لكثير من الحروب التي تختص بالدولة. "فالمسحيين الأوائل عارضوا الانضمام للعسكرية للعديد من الأسباب وتم تلخيص هذه الأسباب بواسطة Adolf von Harnack: سفك الدماء في المعركة، التعذيب في المحاكم...إلخ (**Jerry Robinson, The Testimony of the Early Church Fathers On Violence and War. online.**)."

فيرى باڤينك أنَّ الأخلاق المسيحية تسمح باستنتاج أنه يمكن أنّ تكون هُناك حروب جيدة وعادلة! ربما هم قليلون من حيث العدد. وفي كل حَرب حتى أكثرها عدلاً، تحدث أشياء كثيرة تدينها المسيحية والإنسانية بشدة، ومع ذلك لا الكتاب المقدس ولا التاريخ يقدمان أسبابًا كافية لشجب كُلَّ حرب دون قيد أو شرط. ويقدم باڤينك معايير يمكن أنّ تكون الحرب فيها عادلة: أنّ تمتثل لمطالب المبادئ العليا الأخلاقية الإنسانية، وتخدم وتحفظ العدالة _ عندها فقط يتم شنها في حالة الضرورة القصوى. إذًا لَا يمكن تبرير الحرب في حق القوة ولا الفضائل مثل: حُب الوطن، البطولة، الصمود، الوحدة، الاستعداد لتقديم التضحيات. إذا كان يجب الدفاع عن الحَرب، ينبغي أنّ تمر هي نفسها قبل خوضها باختبار العدالة الصارم جدًا. ولا يوجد أيّ تبرير آخر للحَرب مثل: التوسع الثقافي المكانيّ أو التقدم بالمسيحية أو بأيّ معتقد (**Herman Bavinck, "The Problem of War," 46–53.**). إن فافينك ينكر أيّ مسعى للحرب سوى العدل، فلا مجال لتبرير أيّ توجه يكون هدفه إقصاء الآخر أو هدفه الحصول على المنفعة المادية. ولَم تأمر المسيحية يومًا بأي إعتداء على الآخر بهدف تبشيري أو أيّ توسع، ولا يمكن تبرير أيّ توجه بحجة إنتشار دين أو طلب للهيمنة. ولكن يبقى السؤال الذي يحتاج إلى مزيد من البحث والاجتهاد: مَن الذي سيحدد مقياس العدل والحق الذي على أساسه تُقام الحرب؟!

تجدر الإشارة إلى إنه بعد الاجتياز بخبرة الأثار المدمرة للحرب يكون للشخص توجه أكثر نحو محاولة منعها بكل الطرق، بدلًا من محاولة تقييمها هل هي عادلة أمّ لا وهذا ما أقر به باڤينك. "**فعِنْدَمَا نظر هيرمان باڤينك Herman Bavinck إلَى الحرب العالمية الأولى في عام 1920م والأثار المرتبة عليها كتبَ هذه الكلمات تعبيرًا عن رفضه الشديد للحَرب: عِندما يستعرض المَرء الحرب فِي بَدايتها وتقدمها ونَهايتها، يجد انه مِن الصعب قول أيّ شيءً جيد عنها؛ فالحرب لَمْ تَجلب سوى البؤس للعالم. إنَّ دعوتنا المسيحية قبل كُلَّ شيء أنّ نستخدم كُلَّ الوسائل المُتاحة والمَسموحَة، وأنّ نبذل قصارى جهدنا لمنع تكرار مثل هذه الكارثة مرة أُخرى؟ لَا شك أنّ الله لديهِ القدرة علَّى إخراج الخير مِمَّا ابتكرهُ الإنسان مِن**

شر، ويبقى ذلك تعزية لنا في وسط هذا البلاء_ لكن قوة الله هذه لَيست قاعدة لسلوكنا ولا مبرر لنا! (Dirk van Keulen, "Herman Bavinck and the War Question," in Christian Faith and Violence, 140.)".

صورة لهيرمان باڤينك

مينا عبدالله أنس

طالب بكلية اللاهوت الإنجيليّة بالقاهرة